ثقافة الأطفال والمحافظة على سلامة البيئة من التلوث

د. سليمان جادو شعيب *

مقدمة:

أطفالنا عبير حياتنا، وزهرة دنيانا التي ترسل شذاها فتعطر الحياة من حولنا؛ فنحس معها بطعم الحياة، وندرك بوضوح دورنا فيها، فنَجِدُّ ونجتهدُ من أجل توفير عيشة راضية، وحياة مُطمئنة لهم على الرغم من ضخامة التبعة وعِظَم المسئولية، فكل جهد في سبيل تهذيبهم مُحبَّب، وكل عناء من أجل تقويمهم جسمانيًا وخُلقيًا يطيب ويعذُب، ولا عجب في ذلك فهم أكبادنا التي تمشي على الأرض!! وهم المستقبل المشرق الذي نرجوه... هم الأزهار والورود وأشعَّة الضوء في حياتنا.

أدرك الإسلام ديننا الحنيف تلك الحقيقة، وأولاها أهميةً عظمى، فاعتنى بالطفولة، وعمل على حمايتها من الأخطار التي قد تتعرض لها؛ تقديرًا منه لدورها، وما يُبنى عليها من آمال، فهم روَّاد الغد وبُناة المستقبل؛ ولهذا فتمتد عنايته بهم، ورعايته لهم، حتى قبل أن يُولدوا ويروا نور الحياة، فإذا ما قَدِموا إلى عالمنا كفل لهم كل ما يضمن سلامتهم ويحفظ عليهم حياتهم، ويخلق منهم جيلًا مؤمنًا قويًا، يسهم في دعم الحضارة الإنسانية وتقوية أسسها.

تحظى مشكلة التلوُّث (Pollution) باهتمام متزايد في الأوساط العلمية؛ نظرًا لما تنطوي عليه من أخطار مباشرة على البيئة التي تُعَدُّ وسط الحياة الوحيد لجميع الأحياء التي تستوطن الأرض. ولا شك أن الثورة الصناعية التي بدأت منذ ما يقارب على قرنين ونيِّف تقع في مقدمة أسباب التلوث الذي يزداد خطره يومًا عن يوم. فمشكلة التلوث اليوم هي أشد خطورةً مما كانت عليه منذ بضعة عقود، وسيكون خطرها أكبر في العقود القادمة، ويؤيد ذلك ما نطالعه كل يوم عن ازدياد حجم هذه المشكلة، واتساع نطاقها الجغرافي، ويكاد لا يخلو مكان على سطح الأرض من التلوث وإن اختلفت درجة إصابة البيئة باختلاف الموقع الجغرافي. وتتعدد أنواع التلوث ومُسبِّباته

* باحث وناقد ومحاضر بوزارة الثقافة – مصر.

لدرجةٍ يصعُب معها حصر هذه الأنواع والمسببات، إلا أن أشدها خطرًا وانتشارًا هو التلوث الكيميائي.

إن التحدي الحقيقي الذي يواجه الإنسان المعاصر يتمثل في ضرورة العمل الجاد للحفاظ على بيئته سليمةً ومستقرةً ومتوازنةً بعد أن أخذت تتعرض بالفعل لكوارث حقيقية بفعل المدنية الحديثة والتصنيع والتكنولوجيا؛ الأمر الذي يهدد الوجود الإنساني ذاته. من أجل ذلك كان لا بدَّ علينا أن نحافظ على سلامة أطفانا وفلذات أكبادنا من أخطار التلوث البيئي التي انتشرت وازدادت في عصرنا الراهن بصورة مذهلة، وأن نقدم إليهم الإرشادات اللازمة التي تحميهم من هذا التلوث الذي يحيط بهم من كل جانب[1].

لقد كثُر الحديث واللقاءات والمؤتمرات في عصرنا الراهن عن تلوث البيئة أو اختلال التلوث البيئي، وترى هذه المؤتمرات كيفية الحفاظ على البيئة من تحديات وجهل الإنسان بالبيئة، وأن العلماء والمهتمين بالبيئة يحذرون من الأخطار التي تنتج عن سوء استغلال البيئة، ولكن وسائل الإعلام وأجهزته المختلفة لم تُسهم الإسهام الفعَّال في نشر المبادئ والقيَم البيئية؛ لأن الإنسان لا يشعر أن الذي يحيط به يُعدُّ جزءًا أساسيًا وجوهريًا من البيئة يجب التعامل معه على أُسُس ونُظُم سليمة لا تؤدي إلى وجود الاختلال البيئي، ويجب أن نعرف التعريف العلمي والحقيقي للبيئة؛ لأن معظم الأفراد والشعوب تجهل المعنى العلمي للبيئة. وتُعدُّ مصر من الناحية التاريخية من أولى دول العالم التي اهتمت بحماية البيئة. فقد عُثِر على بعض الكتابات المنقوشة على جدران المعابد ومقابر الفراعنة تؤكد أن تلويث مياه النيل يُعَدُّ جريمةً خطيرة. وقد عُثِر على كتابات لأحد الفراعنة يُقسِم فيها أنه خلال حياته لم يلوث أبدًا مياه نهر النيل. وقد تلاحظ أن معظم آثار الفراعنة قد شُيِّدت في أراضٍ صحراوية لا تصلح للزراعة[2].

الإهمال والتلوث وجهان قبيحان لعملة واحدة رديئة وبغيضة، وهما يتكاملان ويتعاونان في أن يحيطا حياتنا بأشد الأخطار، ويوقعا بنا أكبر الأضرار، وهما يشكِّلان حلقة مُفرَّغة ودائرة مغلقة، تجعل كلًا منهما سببًا للآخر أو نتيجةً له، وغاية أمانينا أن تكون بلادنا أرقى وأجمل بلاد الدنيا، ولن تكون كذلك إلا إذا تخلَّصت من بعض السلبيات التي تشوب حياتها، وإلا إذا تخلص أبناؤها كبارًا وصغارًا من بعض السلوكيات البعيدة عن النظام والانضباط والتحضُّر والمدنية فيسيئون بهذه السلوكيات لسمعة بلادهم، ويكونون حجرَ عثرةٍ في سبيل نموِّها وتقدُّمها، ومعرضين بيئتها لأشد الأخطار بل ولأكبر الأضرار.

إن الوعي الصحي البيئي يفرض نفسه بعد أن تعقَّدت مشكلات التلوث وطغت على السطح آثارها الجانبية الفتَّاكة المنتشرة في المجتمع. وثبُت أن ثلث أمراض الأرض سببه البيئة الملوثة، وتظهر واضحةً في الأطفال والمُهمَّشين وسكان العشوائيات، وتقفز الأولويات وفي مقدمتها مياه الشرب النقية والصرف الصحِّي وتلوث الهواء، والمُخلَّفات بكل أنواعها وسلامة الطعام، وهناك 13 توصية صحية تساعد على مكافحة التلوث والتقليل من الأمراض.

إن الاهتمام بالبيئة من الأمور المهمة في حياة الشعوب والدول، وهو المقياس الذي يدل على مدى تحضُّرها، وهو قاسم مشترك بين الأمم وبعضها، وتُعدُّ المحافظة على البيئة من أهم الأمور التي يعود مردودها على صحة الإنسان، فكلنا جميعًا مسئولون عن البيئة والمحافظة عليها؛ مما يساعد على مكافحة الأمراض والتغلب على المشاكل الصحية المنتشرة في المجتمع، من خلال زيادة درجة الوعي الصحِّي البيئي، تغيير المعتقدات والسلوكيات الخطأ؛ من أجل الارتقاء بالصحة العامة.

لقد أصبحت مشكلات التلوث البيئي تظهر على السطح بشكلٍ واضحٍ وملموسٍ للإنسان ولا يمكن أن ينكرها نتيجة الزيادة السكانية، التطور التكنولوجي، عدم الوعي الصحي البيئي، التغيُّرات المناخية، الاحتباس الحراري مما يسهل حدوث أمراض جديدة؛ لهذا أصبح الوعي الصحي البيئي من أهم الضرورات لحماية المجتمع للوقاية من المخاطر البيئية، خفض بعض الأمراض حيث إن السلوك البشري له دور مهم في حدوث الأمراض ونقلها، أيضًا الإنسان يسبب التلوث بعدم الوعي الصحي ثم يعاني الأمراضَ والتلوثَ بعد ذلك.

من أجل ذلك يجب أن نعمل جميعًا من أجل رفع الوعي الصحي البيئي لإيجاد سلوك إيجابي صحي بيئي للمجتمع وللوقاية من مشكلات التلوث.

إن الصحة البيئية تشمل جوانب الصحة البشرية بما فيها نوعية الحياة، التي تحددها العوامل الفيزيائية، الحيوية، الكيميائية، والنفسية المحيطة بالإنسان، وهي التوازن المفروض حدوثه بين الإنسان ومُكوِّنات البيئة من أجل صحته ورفاهيته.

أيضًا تشير إلى تصحيح أو منع العوامل البيئية التي تؤثر سلبًا على صحة الإنسان والأجيال القادمة، إنها تشمل التغذية – التربة – الماء – الهواء – الضوضاء – التحكُّم والتداول الآمِن للمُخلَّفات العادية والخَطِرة – الصرف الصحي.

إن هناك توازنًا ديناميكيًا بين الإنسان وبيئته وهو ما يُعدُّ علامةً إيجابية، إذا حدث أي خلل في هذا التوازن ينتج المرض، وتنحصر عوامل حدوث وانتشار ومكافحة أي مرض في البيئة بين العوامل الثلاثة "العائل – البيئة – سبب المرض"، وفي نفس البيئة التي يعيش فيها العائل "الإنسان" توجد مُسبِّبات طبيعية وحيوية تؤثر على الصحة إيجابيًا أو سلبيًا.

إن البرنامج الفعَّال لتحقيق بيئة صحية آمِنة يجب أن يأخذ في الاعتبار جميع المُكوِّنات المختلفة التي تتضمَّن التوعية والمعرفة البيئية بمخاطر وأمراض التلوث.

لقد ورد عن منظمة الصحة العالمية أن عبء الأمراض البيئية يمثل ثلث نسبة الأمراض على المستوى العالمي، وأن هناك 13 مليونًا من الوَفَيات البشرية يمكن تفاديها سنويًا إذا ما تمَّ تحسين السلامة والصحة البيئية، أيضًا هناك 33٪ من أمراض الأطفال سببها تلوث البيئة؛ إن مياه الشرب غير الصحية تسبب موت 1,8 مليون شخص سنويًا نتيجة الإسهال 90٪ منهم أطفال تحت 5 سنوات. أيضًا يقتل تلوث الهواء داخل الأماكن التي يتم فيها استخدام وقود الكتلة الحيوية قرابة مليون طفل سنويًا، معظم ذلك نتيجة العدوى التنفسية الحادة، إن الأمهات اللائي يقُمْن بالطبخ ويبقين قريباتٍ من المواقد بعد الولادة يتعرَّض مُعظمهنَّ للإصابة بالأمراض التنفسية المزمنة[3].

وبروح المسئولية فإن الدعوة إلى الحفاظ على البيئة وحمايتها ترتفع في الوقت الحاضر في كل أنحاء العالم، بعد أن أصبحت الحاجة ماسَّةً إلى ترشيد استخدام الإنسان للبيئة، عن طريق التخطيط العلمي واتباع السياسات الواعية وما يتطلبه ذلك من تدابير وقائية وتشريعات وقوانين ومشاكل البيئة لا تعترف بحدود الدول؛ ولذا فإن الحاجة المُلحَّة تدعو إلى مزيدٍ من الجدية والتعاون في مواجهة مخاطر العصر.

ومن أجل الاهتمام بالبيئة ومن أجل حماية ووقاية أطفالنا فلذات أكبادنا، نُهيب بالأجهزة الإعلامية المختلفة كافةً أن تقوم بالدور الفعَّال في نشر القيم والمبادئ البيئية بين الأفراد، وأيضًا على وزارات التعليم والشباب والثقافة والأوقاف كافةً أن يعملوا جاهدين على نشر الوعي البيئي بين شرائح وطوائف المجتمع كافةً وخاصة بين أطفال المدارس وجميع المراحل التعليمية، وتوعيتهم وتبصيرهم بوسائل تَوقِّي هذا الضرر؛ حفاظًا على صحتهم وحياتهم.

نحو مقاربة مفهوم الثقـافة في علاقته بالطفـل

الثقـافة كلمة، أجَل كلمة واحدة، لكن مدلولها واسع عميق يشمل معاني كثيرة وقيَمًا متعددة، اختلف الكُتَّاب والعلماء في تحديدها ولا زالوا يختلفون؛ ذلك أنها أصبحت في مفهومها الحديث متشابكة الأسباب متداخلة المسالك، تمتزج عناصرها امتزاجًا يصعُب على المرء تحديده وتحليله.

إنَّ كلمة ثقافة تدل على المزاج المُركَّب من الخصائص والعقائد والمأثورات، وغير ذلك من الخصائص التي تميز جماعةً من الجماعات من حيث السُّلالة أو الدين أو الاجتماع، ومن ذلك قولنا: "أمة لها ثقـافات كثيرة" [4].

ويتفق غالبية الباحثين في ثقافة الأطفال، أن مفهوم الثقافة شامل، يتسع للعادات والقيم والمعتقدات، وأساليب السلوك والعلاقات، وأساليب السلوك والعلاقات، والأدوار والتقنيَّات التي ينبغي تعلُّمها، والتكيُّف معها بما يُعطي الحياة نمطًا محددًا.

أما ثقافة الأطفال، فتتصل بعملية التنشئة الاجتماعية برُمَّتها، انطلاقًا من مفهوم الثقافة، ولا سيما الثقافة العربية، وهذا يعني اعتمال ثقافة الأطفال العرب، بتكوين شخصية الطفل العربي وانتمائه إلى ثقافته القومية وإرساء أُسُس هوية عربية متينة[5].

تقتضي معالجة مسألة ثقافة الطفل العربي مقاربة مرجعية لمفهوم الثقافة في عموم الدَّلالة والمضمون، فالثقافة في معاجم اللغة العربية مُستمدَّة ومُشتقَّة من الفعل ثَقَفَ بمعنى يفيد الفهم والحذق وسرعة التعلُّم. ورد في مختار الصِّحاح[6] تحديد لكلمة ثقف بمعنى الحذق والخفَّة. وفي المصباح المنير وردت كلمة ثقف بمعنى الفهم بسرعة، وإقامة المُعوجّ من الأمر: فيُقال ثقف المرءُ الشيءَ أي حذقه وصار حاذقًا فيه، والامرؤ الثَّقِف هو الموصوف بالفطنة والذكاء ورسوخ المعرفة. وتأخذ كلمة ثقف معنى التسوية والاستقامة والإصلاح، حتى إن بعض المعاجم اللغوية، تربطها بتسوية الرُّمْح، وتقويم اعوجاجه[7].

وجاءت كلمة ثقافة ترجمة Culture الإنجليزية. وهي كلمة تعني الحضارة، والثقافة في الفرنسية Culture ومعناها الحَرْفيّ "الزَّرْع"، فهي التعليم الذي يغرس المعرفة في النفوس. أما الثقافة – بالمعنى الذي نستخدمه – فإن الكلمة المناسبة هي "المعرفة"، والمثقف بالتالي هو الذي يحيط بكل معارف عصره سواء تبحَّر فيها وتعمَّق أم توقف عند حدٍّ ما[8].

استُخدمت كلمة "الثقافة" في مفردات اللغات المختلفة منذ أزمانٍ بعيدة، وقد أُريد بها معانٍ متعددة. ولكن هذه المفردة لم تلبث أن أصبحت مصطلحًا علميًا يحمل معنًى محددًا، رغم أن

الناس لا زالوا يستخدمونه – في أكثر الأحايين وفي كل مكان – بغير معناه العلمي. ولا ذنب للناس في ذلك بقدر ما هو ذنب أولئك العلماء الذين انتزعوا كلمة شائعة ليجعلوا منها مصطلحًا علميًا دون أن يحاولوا نحت مفردة جديدة تعبر عمَّا يريدون لها أن تحمل.

وكان علماء دراسة الإنسان قد أدخلوا كلمة "ثقافة" ضمن القاموس العلمي، ووضعوا تعريفاتٍ عديدة لها منذ أواسط القرن التاسع عشر، وانتهوا إلى وصفها بأنها جملة الإنجازات الإنسانية. وقد انتفع من هذا المفهوم واستعان به أغلب العلوم الإنسانية في تحليلها للظواهر في المجتمع؛ إذ احتل هذا المفهوم موقع الصدارة في اهتمامات المشتغلين بعمليات التربية، والتعليم، والاتصال، باعتباره أساسًا لفهم العوامل المؤثرة في هذه العمليات؛ لما ينطوي عليه من سَعَة تشمل المجتمع ومؤسساته ونُظُمه وعلاقاته ومشكلاته، إضافةً إلى شموله الفرد ودوافعه وقيمه وعاداته وما إلى ذلك من عناصر شخصيته، حيث إن الشخصية تمثل الجانب الفردي من ثقافة المجتمع.

ولم يقتصر ثراء مفهوم الثقافة على تعدُّد تعريفاتها وتتابُع الدراسات عنها، بل ظهرت تخصصات عديدة تُعنى بدراستها مثل علم الثقافة (Culurology) الذي يرى الثقافة مسألةً قائمةً بذاتها، وأن دراستها تشكِّل مجالًا له استقلاليته، وعلم الأنثروبولوجيا الثقافية (Cuttural Anthropology) الذي يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها، إضافةً إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة كالتراكم الثقافي (Cultural Accumulation)، والتغيُّر الثقافي (Cultural change) والصراع الثقافي (Cultural cunflict) والاتصال الثقافي (Cultural contact) والتطور الثقافي (Cultural Evolution) والتكامل الثقافي (Cultural Integration).

وجدير بالذكر أن لكل مجتمع ثقافةً خاصةً به، وليس بالوسع تصور مجتمع بلا ثقافة، حيث إن وجود المجتمعات يعني بالضرورة وجود الثقافات ما دامت الثقافة أسلوبَ حياة.

وللأطفال في كل مجتمع مفردات لغوية متميزة وعادات، وقيَم، ومعايير، وطرق خاصة في اللعب، وأساليب خاصة في التعبير عن أنفسهم، وفي إشباع حاجاتهم. ولهم تصرفات، ومواقف، واتجاهات، وانفعالات، وقدرات، إضافةً إلى ما لهم من نتاجات فنية ومادية، وأزياء وما إلى ذلك؛ أي لهم خصائص ثقافية ينفردون بها، ولهم أسلوب حياة خاصة بهم، وهذا يعني أن لهم ثقافة هي: ثقافة الأطفال Children's Culture.

وثقافة الأطفال: هي إحدى الثقافات الفرعية في المجتمع، وهي تنفرد بمجموعة من الخصائص والسمات العامة وتشترك في مجموعة أخرى منها – إلى حدٍّ ما –. وليس بالوسع تحديد أبعاد وخصائص ثقافات الأطفال في المجتمعات المختلفة؛ لأن ثقافة الأطفال في مجتمعٍ تختلف عنها في مجتمعٍ آخر تبعًا لإطار الثقافة العامة وما يتبع ذلك من وسائل وأساليب في الاتصال الثقافي بالأطفال.

وتظهر في ثقافة الأطفال الملامح الكبيرة لثقافة المجتمع في العادة، فالمجتمع هو الذي يُولِي أهميةً كبيرةً لقيمة معينة في العادة في ثقافة الأطفال.

إن ثقافة الأطفال في كل جيل تختلف – إلى حَدٍّ ما – عن ثقافة الأطفال في الجيل السابق؛ لذا فإن الآباء أنفسهم في كل جيل يضجُّون بالشكوى لحال أطفالهم الذين لم يكونوا مثلهم، عقلاء، مطيعين: ويبدو أن هذه الشكوى قديمة كل القِدَم، فقد عُثر على ورقة من البردي تعود إلى أيام الفراعنة، وقد كتب عليها أحد الآباء متحسرًا وهو يقول: "آه... لقد فسد هذا الزمان .. إن أولادنا لم يعودوا كما كُنَّا أنقياء... إن كل واحد منهم يريد أن يؤلف كتابًا"(9).

فالثقافة عامة هي إمتاع الوجدان بإبداع المعرفة والفن، وعليه فثقافة الطفل هي إمتاع الطفل وجدانيًا بالكلمة والصورة بكل إبداعات المعرفة والفن.

أصبحت قضية البيئة وحمايتها والمحافظة عليها من مختلف أنواع التلوث واحدةً من أهم قضايا العصر، وبات مصدرًا لأضرار وأخطار عديدة يتعرض لها الإنسان وخاصةً أطفالنا الصغار، وأصبح أيضًا بُعدًا رئيسًا من أبعاد التحديات، التي تواجهها البلاد النامية خاصة في التخطيط للتنمية الشاملة في ضوء التجارب التي خاضتها البلاد المتقدمة، والمشاكل البيئية المعقدة التي تحاول أن تجد لها الحلول الممكنة قبل أن تقضي تراكمات التلوث على إمكان العلاج الناجح. ولم تعُد اعتبارات التنمية – رغم أهميتها البالغة – عذرًا لتجاهل المحافظة على البيئة أو اتخاذ التدابير الفعَّالة لمكافحة التلوث، فالقضية هي قضية البقاء ونوعية الحياة التي يحياها الإنسان، بل استمرار الحياة نفسها.

البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويضم العناصر الثلاثة: الهواء، والماء، والتربة. وفي هذا الإطار يمارس نشاطه الاجتماعي والإنتاجي. وحيث إن البيئة هي إطار الحياة ومصدر الثروة والإنتاج، فإن الحفاظ على نُظُمها والترشيد في استخدام مواردها تساعد على العطاء والإنتاج.

ولقد بدأ الوعي البيئي يأخذ دوره على النطاق العالمي منذ عهد غير بعيد عند التحضير لمؤتمر "استوكهولم" الدولي عن بيئة الإنسان عام 1972م؛ خاصةً بعد أن شعرت الدول المتقدمة صناعيًا بالآثار السيئة على البيئة التي نشأت من تطبيق بعض أنواع التكنولوچيا الحديثة المتقدمة، ونجم عنها كثير من المشاكل، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

1- ثبوت وجود بقايا المبيدات في دم ولبن الأمهات المرضعات.

2 - ثبوت وجود بقايا المبيدات في عظام الأطفال حديثي الولادة وفي أمخاخهم كُلْيَاتهم، وأكبادهم، وأجسامهم.

3 - ظهور أمراض خطيرة مثل مرض إيتاي إيتاي الذي ظهر نتيجة تلوث البيئة بالكادميوم والذي يتسبب عنه سهولة كسر عظام الإنسان.

4 - ثبوت وجود علاقة بين الإصابة بالسرطان والفشل الكُلَوِيّ وأمراض الكَبِد ومُلوِّثات البيئة، حيث تلازم ارتفاع عدد الموتى بهذه الأمراض مع الارتفاع في كمية الملوثات في الطعام وكذا في البيئة.

5 - إن تناول الإنسان أو النبات أو الحيوان كمياتٍ قليلةً من المواد السامة مع غذائه رغم عدم ظهور آثار سامة عليه - فإن ذلك لا يعني أنه تجنَّب ضررها حيث ثبت أن هذه البقايا تتراكم داخل الأنسجة في الكائنات الحية عامًا بعد عام، حتى تصل إلى التركيزات السامة التي تظهر في صورة أمراض سرطانية أو فشل كلوي أو أمراض كبد.

6 - إن هناك علاقة أكيدة بين التدخين وسرطان الرئة.

7 - إن الذبابة المنزلية الواحدة تحمل أكثر من 6 ملايين ميكروب على جسمها كافية لنقل 42 مرضًا للإنسان، وتلعب دورًا خطيرًا ومهمًا في تلويث البيئة بعديد من الأمراض الخطيرة، مثل: الكوليرا، والتيفود، والدوسنتاريا، والسُّلّ، وغيرها.

9 - أثبتت البحوث وجود كثير من المُلوِّثات في مياه الأمطار التي تتساقط على دولٍ لم تستعمل هذه الملوثات.

10 - إن مشكلة سقوط الأمطار الحَمْضيَّة على عديدٍ من دول العالم ترجع إلى شدة تلوث الهواء في المدن الصناعية التي تُخرج كمياتٍ هائلةً من غازات ثالث أكسيد الكبريت، وثاني أكسيد الكبريت، وغيرها.

11 – إن موت الأحياء الموجودة في البحار والمحيطات والأنهار والمصادر المائية التي تغطي 70٪ من الكرة الأرضية يعني فناء البشرية.

12 – ثبوت تلوث جميع مصادر المياه في العالم كله سواء أكانت محيطات، أم بحارًا، أم أنهارًا، أم مستنقعات، أم مصارف أو بحيرات، أم حتى مياهًا تحت أرضية، أم مياهَ أمطار.

13 – إن 90٪ من الحالات الموجودة في المستشفيات سببها تلوث البيئة سواء بطريق مباشر أم غير مباشر.

14 – أوضحت الدراسات زيادة حالات الإصابة بسرطان القولون في الدول النامية.

15 – ثبوت تلوث المواد الغذائية بالعناصر الثقيلة وبقايا المبيدات.

17 – إن مشكلة تلوث البيئة مشكلة عالمية وليست مشكلة قومية، ويجب أن تتعاون كل الدول من أجل حماية البيئة.

ولقد وجد المسئولون على مستوى العالم أنه لا سبيل إلى حل هذه المشاكل إلا بالتخطيط البيئي المتكامل البعيد المدى، ولا بد أن تتلازم حماية البيئة مع الاستمرار في التنمية؛ فأهداف التنمية والمحافظة على البيئة وحدة متكاملة فالهدف في النهاية واحد، وهو تحسين مستوى معيشة الإنسان كمًا وكيفًا، وقد أطلق كثيرٌ من الباحثين لفظ الإدارة البيئية على عملية المحافظة على البيئة وتنمية مواردها. وعادةً.. تعتمد الإدارة البيئية على التشريع وبقدر ما يكون التشريع نابعًا من عقيدة الأمة يكون أكثر فاعليةً وجدوى.

والعقيدة الإسلامية هي التي وضعت تصورًا كاملًا عن الإنسان وعلاقته بالمحيط الحيوي الذي نعيش فيه[10].

فمشكلة الحفاظ على البيئة تمثل إذن أحد أكبر وأهم التحديات التي تواجه المجتمع البشري، وتستلزم اتخاذ القرارات والإجراءات الحاسمة التي تكفل الإبقاء على المُقوِّمات البيئية الإيجابية التي تساعد على استمرار الحياة بأشكالها المختلفة. وقد عمدت بعض الدول بعد مؤتمر استوكهولم إلى إصدار عدد من القوانين والتشريعات الخاصة بسلامة البيئة داخل حدودها الوطنية، مع الاحتفاظ بحق مقاضاة الدول الأخرى التي قد تتسبب في إلحاق الأذى بهذه البيئة المحددة والمطالبة بالتعويض عن الأضرار الناشئة عن مثل هذه التعديات، ولكن لا يزال الأمر يحتاج

إلى صدور قوانين وتشريعات صارمة وصريحة على المستوى العالمي بحيث تكون مُلزِمة للجميع، وبحيث تُطبَّق بدقة على جميع الدول من دون تمييز. وقد يكون ذلك صعبًا في الوقت الحالي إزاء الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تتمتع بها دول معينة بالذات، تستطيع أن تتحدَّى- بما تملك من قوة - كل القرارات والقوانين والتشريعات الدولية[11].

مفهوم البيئة وتعريفها

"البيئة" لفظةٌ شاع استخدامُها في السنوات الأخيرة، بحيث أصبحت تجري على ألسنة العامة والخاصة، وقد أفرط الكثيرون في استعمالها، فنحن نسمع مَن يقول: "البيئة الاجتماعية" أو "البيئة الحضرية" أو "البيئة الثقافية" أو "البيئة المشيدة" وغير ذلك، حتى يُخيل للمرء أن هذه الكلمة باتت ترتبط بجميع مجالات الحياة. وعلى الرغم من ذلك، فإن المفهوم الدقيق لكمة البيئة لا يزال غامضًا للكثيرين، لاسيما وأنه ليس هناك تعريف واحد محدد، يبين ماهية البيئة، ويحدد مجالاتها المتعددة.

البيئة في اللغة:

إن تحديد مفهوم البيئة يتطلب التعرُّف على الأصل الاشتقاقي للبيئة لغويًا، وعلى المصطلح المرادف لدلالاتها في تراثنا الإسلامي، وهو كما يلي:

يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة في العربية إلى الجذر (بَوَأ)، الذي أُخذ منه الفعل الماضي (بَاءَ). ذُكر أن لكلمة "تبوَّأ" معنيين قريبين من بعضهما، الأول: بمعنى إصلاح المكان وتهيئته للمبيت فيه، والثاني: بمعنى النزول والإقامة به. فقد ذكر ابن منظور في معجمه الشهير "لسان العرب": باءَ إلى الشيء يبوءُ بَوْءًا، أي رَجَع. و"بَوَّأ" - بتضعيف الواو - أي سدَّد، ومنه قولهم: (بوأ الرمح نحوه)؛ أي سدده نحوه وقابله به.

و(تبوَّأ): نزل وأقام. تقول: (تبوأ فلان بيتًا)؛ أي اتخذ منزلًا، وذلك إذا نظر إلى أسهل ما يراه وأكثره استواء وأفضله لمبيته فاتخذه منزلًا.

وقال ابن فارس: (الباء - والواو - والهمزة) أصلان، أحدهما: الرجوع إلى الشيء، والآخر: تَساوِي الشيئين.

وفي القرآن الكريم: {**أن تَبوَّءَا لقَوْمِكُما بمصرَ بيوتًا**} [يونس/ 87]: أي اتَّخِذا. ويُقال: (أَباءَهُ منزلًا)؛ أي هيَّأه له وأنزله فيه.

والاسم: البيئة والمَبَاءَة، بمعنى: المنزل. ويُقال: (إنه لحسن البيئة)؛ أي هيئة استقصاء مكان النزول وموضعه.

وقد ذكر ابن منظور لكلمة (تبوَّأ) معنيين قريبين من بعضهما:

الأول: بمعنى إصلاح المكان وتهيئته للمبيت فيه. قيل (تَبوَّأه): أصلحه وهيَّأه، وجعله ملائمًا لمبيته، ثم اتخذه محلًا له .

والثاني: بمعنى النزول والإقامة، كأَنْ تقول: (تبوأ المكان)؛ أي حلَّه ونزل فيه وأقام به.

وقوله تعالى: {**والذين تَبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ**} [الحشر/ 9]؛ أي الذين سكنوا المدينة من الأنصار، واستقرت قلوبهم على الإيمان بالله ورسوله. قال ابن منظور: «جعل الإيمان محلًا لهم على المثل؛ وقد يكون أراد: وتبوءوا مكان الإيمان وبلد الإيمان، فحُذف».

وقال الفرَّاء في قوله – عز وجل–: {**والذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ لنُبوِّئنَّهم منَ الجنةِ غُرفًا**} [العنكبوت /58]، يُقال: بوَّأته منزلًا، وأثويته منزلًا ثواء: أنزلته. وبوأته منزلًا؛ أي: جعلته ذا منزل.

وفي الحديث الشريف الذي رواه مسلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال:

"**إن كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ على أحد، فمَنْ كذب عليَّ متعمدًا فليَتبوَّأ مقعده من النار**" ، قوله: "فليتبوأ مقعده" معناه: لينزل منزله من النار.

والباءةُ: النِّكاح. وسُمي كذلك لأن الرجل يتبوَّأ من أهله؛ أي يستمكن من أهله، كما يتبوأ من داره. وفي حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – :

"**مَنِ استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّج..**" أراد بالباءة: النكاح والتزويج. والأصل في الباءة: المنزل، ثم قِيل لعقد التزويج باءة؛ لأن من تزوج امرأة بوَّأها منزلًا.

وباء بإثمه وبذنبه: احتمله وصار المذنب مأوى الذنب. وقوله تعالى: {**إنِّي أريدُ أن تَبُوءَ بإثمِي وإثمِكَ**} [المائدة /29]. قال ثعلب: معناه: إن عزمت قتلي كان الإثم بك لا بي.

و(يستباء)؛ أي تتخذ امرأته أهلًا. قال زهير بن أبي سُلمَى:

فلَمْ أرَ معشرًا أسروا هديًا ولم أرَ جارَ سوءٍ يستباء

والمباءة: معطن القوم للإبل حيث تُناخ، ومباءة الغنَم: منزلُها الذي تأوي إليه والمباءة من الرَّحِم: المكان الذي يكون فيه الجنين.

ومن هذا الاستعراض اللغوي يتضح لنا أن البيئة هي: (النزول والحلول في المكان) ويمكن أن تطلق مجازًا على المكان الذي يتخذه الإنسان (مُستقرًا لنزوله وحلوله)؛ أي على:

1- المنزل.

2- الموطن.

3- الموضع الذي يرجع إليه الإنسان فيتخذ فيه منزله وعيشه.

وقد استخدم علماء المسلمين كلمة "البيئة" استخدامًا اصطلاحيًا منذ القرن الثالث الهجري، وربما كان ابن عبد ربه - صاحب العقد الفريد - هو أقدم من نجد عنده المعنى الاصطلاحي للكلمة في كتاب (الجمانة)، أي للإشارة إلى الوسط الطبيعي (الجغرافي والمكاني والأحيائي) الذي يعيش فيه الكائن الحي، بما في ذلك الإنسان وللإشارة إلى المناخ الاجتماعي (السياسي والأخلاقي والفكري) المحيط بالإنسان.

وقد يُراد بالبيئة مجازيًا، أولئك البشر الذين يسكنون فيها أو يقيمون. وأيضًا، يمكن أن تعني البيئة مجازيًا جميع المخلوقات والموجودات التي تحلُّ معنا وتستوطن المواضع التي نعيش فيها، كالحيوانات والنباتات والأشجار والمياه والهواء والصخور.

أما البيئة في المعاجم الإنجليزية (Environment)، فهي تعني: مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات (بمَنْ فيها الإنسان).

المفهوم الحديث للبيئة:

يُعرِّف علم البيئة الحديث (الإيكولوچيا Ecology) البيئة بأنها "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضمُّ من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها".

وبعبارةٍ أخرى: البيئة هي كل ما تخبرنا به حاسَّة السمع والبصر والشَّمّ والتذوُّق واللَّمْس، سواء أكان هذا من خلق الله سبحانه وتعالى (الظاهرات الطبيعية)، أم من صنع الإنسان (الظاهرات البشرية).

وقد أوجز إعلان مؤتمر البيئة البشرية الذي عُقد في استوكهولم عام 1972 مفهوم البيئة بأنها "كل شيء يحيط بالإنسان".

ويتفق هذا المفهوم مع ذلك التعريف الذي ينصُّ على أن البيئة هي (كل ما هو خارج جلد

الإنسان). وفي الواقع، فإن لفظة "البيئة" بمعناها الحالي ومدلولاتها العصرية تتسع لتشمل كل ذلك وأكثر، وهي – من وجهة نظري – تشمل ما هو خارج جلد الإنسان وما هو داخله. ومن هذا المنطلق، يمكننا القول إن البيئة تتكون من شِقَّيْن رئيسَيْن:

الأول : البيئة الخارجية، وهي المحيط الذي يعيش فيه الكائن الحي بمُحرِّضاته وفواعله.

الثاني: البيئة الداخلية: وهي في الحيوانات تتمثل في مجموع السوائل المختلفة الموجودة داخل أجسامها، وهي في النباتات تتمثل في مجموع الموائع Fluids (السوائل والغازات) الموجودة في الأوعية والأنسجة.

وإذا نحن نظرنا إلى تعريف البيئة الذي يقرر أنها (مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية)، فسوف نجد أن الظروف والمؤثرات المقصودة تشمل في الحقيقة أغلب العلوم التي اكتشفها الإنسان وحدَّد معالمها في تطوره الحضاري والصناعي. فالبيئة المحيطة بأي كائن تشمل الظروف المناخية والجيولوچية والطبيعية والكيميائية، بل الصحراوية والبحرية والهوائية والنباتية والحيوانية. هذه الظروف والمؤثرات البيئية مترابطة بعضها ببعض؛ بمعنى أنه لو حدث تغيير مثلًا في أي واحد منها فسيتبعه تغيير في بعض النُّظُم الأخرى على شكل تفاعلات تسلسلية، حسب القوانين والعلاقات التي تربط هذه النظم بعضها ببعض.

والإنسان هو الذي قسَّم العلوم التي تشرح هذه النُّظم إلى علوم كيميائية ومناخية وطبيعية وچيولوچية ونووية وبيولوچية؛ وذلك لكي يتسنَّى له التخصُّص والتعمُّق في كل مجال من هذه المجالات، ولكن البيئة في الحقيقة وحدة متكاملة أو كائن تتجمع فيه كل هذه العلوم في تناسق رائع وترابط وثيق، حسب قوانين ونُظم سنَّها الخالق – عز وجل – لكي ينعم الإنسان بموارد هذه البيئة ويتجنب أخطارها وأضرارها.

وخلاصة القول: فعلم البيئة هو العلم الذي يبحث في المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية، ويُدعى أيضًا بالمحيط الحيوي، والذي يتضمن بمعناه الواسع العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية والإنسانية التي تؤثر على أفراد وجماعات الكائنات الحية وتحدد شكلها وعلاقاتها وبقاءها.

استخدامات أخرى شائعة للبيئة:

سبق أن ذكرت أن لفظة البيئة بمدلولاتها العصرية تعني كل ما هو خارج جلد الإنسان من

موجودات وكل ما هو داخله من سوائل وموائع، إلا إننا قد درجنا في أحاديثنا على استخدامات أخرى شائعة للفظة البيئة، من قَبيل: البيئة الوراثية والبيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية والبيئة الريفية والبيئة الحضرية وغيرها..

التعريف الدولي للبيئة:

أقرَّ المؤتمر الدولي للبيئة (استوكهولم 1972م) ("TIBILIS" تبليس 1978م)، التعريف التالي وهو: "أن البيئة هي مجموعة من النُّظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى، والتي يستمدون منها زادهم، ويؤدون فيها نشاطهم". وهذا التعريف كما هو واضح يشمل: الموارد والمنتجات الطبيعية، والاصطناعية التي تُؤمِّن إشباع حاجات الإنسان.

مفهوم البيئة في الإسلام والفكر المعاصر[12]:

إن المكان والزمان هما البيئة التي يجد الإنسان نفسه فيها في الإسلام؛ ومن ثَمَّ يتعين عليه أن يتعامل معهما، وهو مفهوم للبيئة يختلف – كما رأينا – عن الفكر الوضعي؛ لأن الفكر الإسلامي للبيئة يشمل كل محاولات نشاط الإنسان، فضلًا عن استهدائه بالأفكار السابقة على وجود الأجيال المتعاقبة زمنيًا؛ لاختلاف الفكر الإنساني في جيلٍ عنه في آخر باختلاف التدبُّر والتأمُّل والقيَم السائدة التي يؤمن بها كل جيل من هذه الأجيال.

وعلى هذا الأساس، فإن الفكر الوضعي يقتصر على الناحية المكانية دون الناحية الزمانية حيث ينشغل فقط بالهواء والمياه، سواء أكانت داخلية أم خارجية، ومخازن الفضلات، والضجيج أو الضوضاء، والاهتزازات والطاقة النووية، والفنون الإنتاجية (التكنولوچيا)... إلخ.

ومع انشغال الفكر الوضعي بالبيئة المكانية في هذه الحدود، يخلو هذا الفكر من الناحية الزمانية، فضلًا عن قصوره الملموس في إطار تسخير السموات والأرض لخدمة الإنسان وكما أمر الله، على أساس أن الغاية في النهاية من حركة الإنسان في الإسلام هي العبادة.

إن العمل بالتعاليم الواردة في كتاب الله وسُنَّة رسوله، صلى الله عليه وسلم، والاستعانة بكل ما ورد في هذا الكتاب من أمثال مضروبة وقصص مرويَّة يشير إلى مفهوم العبادة. ومن هنا، فإن مفهوم العبادة يتعيَّن أن يتضمَّن كل ما يصدُر عن الإنسان من قول أو فعل، وكل ما تختلج به نفسه، ويحتويه قلبه على أساس أن الأعمال بالنيَّات وأن لكل امرئٍ ما نوى.

إن تسخير السموات والأرض وما بينهما للإنسان، كبيئة مكانية وحضّ للإنسان على التأمل والتدبُّر فيها ينتهي بهذا الإنسان إلى أن يكتشف وحدانية الخالق، كما أن الحفاظ على هذه البيئة المكانية هو شرط الحياة السليمة التي جاء بها الإسلام للإنسان.

أما **البيئة الزمانية** التي تنصرف إلى التأمل الواعي في مصائر السابقين من الأجيال، فإنها تستهدي عدم الوقوع في أخطاء هذه الأجيال، وبذل الجهد المتزايد للتغلب على ضعف النفس، والوقوف عند الحدود التي وُضِعت للإنسان، فلا يدفعه النجاح في إعمار الأرض لأن يتصرف ضد إرادة الله؛ لأن أممًا سابقة فعلت ذلك، وكانت أكثر قوةً ونجاحًا، واندثرت لأنها لم تعتصم بالاستقامة وبأوامر الله، ولم تنتهِ عما حرَّم الله، وفي هذا يقول الله تعالى: {**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرض وعَمرُوها أكثر مما عَمَرُوها وجاءتهم رسلُهم بالبيِّنات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوأَى أن كذَّبوا بآياتِ الله وكانوا بها يستهزءون. اللّه يبدأ الخلقَ ثم يعيدُه ثم إليه تُرجعون**} (سورة: الروم، الآيات: 9 - 11).

وقد يظن البعض أن إفساد أو تلويث البيئة لا يخرج عن أن يكون مُحصِّلة لعوامل مادية، كإفساد الجو الذي يحيط بالأرض، أو في صورة مواد كيماوية تخرج كفضلات من المصانع... إلخ، ولكن القرآن الكريم يلمح إلى جوانب أخرى للتلوث تتصل بالجانب الأدبي.

والمقصود بالجانب الأدبي هو توفير الظروف السياسية والاجتماعية والتربوية التي تحضُّ القادرين على العمل على استصلاح الأرض المَوَات وإحيائها، وصيانة زراعتها حتى تبلغ الحصاد، ومرجع ذلك أن المقصود بالتلوث هنا هو الحيلولة دون أن تكون الأرض صالحةً للعطاء.

وعلى هذا الأساس فإن كل سلوك يثبِّط همَم العاملين، ويدفعهم إلى هجرة الأرض بالتضييق عليهم أو إنزال الظلم بهم، أو حرمان أصحابها من حصادها هو أشبه ما يكون بالتلوُّث لأنه يُحدث النتيجة التي يُحدثها التلوث المادي.

وفي هذا يقول الله تعالى: {**وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزرع مختلفًا أُكلُه والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتُوا حقَّه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحبُّ المسرفين**} (سورة: الأنعام، الآية: 141).

فالله – سبحانه وتعالى – يربط بين إيتاء حق الثمار يوم حصادها من ناحية وبين عطاء الأرض لهذه الثمار وعدم الإسراف من ناحيةٍ أخرى، ومؤدَّى ذلك أنه – جَلَّ شأنُه – يقرر أن

استمرار عطاء الأرض مشروط بالعدل الاجتماعي والتعاون بين الناس وعدم الإسراف.

وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ضرر ولا ضرار" (رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما)، فالشريعة الإسلامية ترفض إحداث أي ضرر للإنسان يصيب به نفسه أو غيره، ولما كان إهمال الأرض وإبقاؤها مَوَاتًا، أو جعلها كذلك بأي وسيلة هو ضرر بالنفس وبالآخرين، فهو بالتالي كفر بِنعَم الله وتخلف عن شكره عليها.

كما يقرر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في المعنى ذاته أنه: "**لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا**"، فالترويع هو أقصر الطرق إلى تجميد الإنتاج البشرى؛ وبالتالي إلى زرع اليأس في النفوس وتثبيط الهمَم عن العمل المنتج.

أما بالنسبة إلى المفهوم المعاصر للبيئة، فجدير بالذكر أن نشير إلى أنه قد عُقد خلال عام 1972 بمدينة ستوكهولم، عاصمة السويد، مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية حيث أعطى هذا المؤتمر مفهومًا متسعًا للبيئة، بحيث أصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية (ماء وهواء وتربة ومعادن ومصادر للطاقات ونباتات وحيوانات)..

وانتهى المؤتمر إلى اعتبارها رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفى مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته. وفي هذا فإن البيئة الطبيعية تتكون من الماء والهواء والتربة والمعادن ومصادر الطاقة والنباتات والحيوانات، وجميعها تمثل الموارد التي أتاحها الله للإنسان كي يحصل منها على مُقوِّمات حياته.

أما البيئة الاجتماعية فتتكون من النظم الاجتماعية والمؤسسات التي أقامها الإنسان، فهي الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها إشباعًا لحاجاتها.

وترتيبًا على ذلك يمكن القول بأن البيئة "تمثل الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مُقوِّمات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر" (**انظر تفصيل ذلك، رشيد الحمد، محمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، صفحة (٢٥)**).

ومع ذلك لا يزال يبرز الجانب المادي فقط في مفهوم البيئة في الفكر المعاصر، ومنه يتضح إلى أي حدٍّ يتمتع الإسلام بنظرةٍ أوسع في مفهوم البيئة؛ خاصةً في اعتبار البيئة نعمةً من نعَم الله تستحق الشكر من جانب الإنسان لاستمرارها عليه.

المفهوم الإسلامي للبيئة:

إن التعريفات المتاحة لمفهوم البيئة تتفق جميعها في الإطار العام، ولكنها تختلف في الجزئيات وفقًا لنوع الدراسة وواضعي التعريف. فهناك من ينظر للبيئة على أنها مستودع أو مخزن للموارد الطبيعية والبشرية [13].

كما ينظر البعض للبيئة نظرةً جماليةً على أساس أنها مورد للسلع الطبيعية والمتنزهات العامة والمناطق الترفيهية، وتُقدر أهمية هذه الموارد بمدى إسهامها في إضفاء الجمال على نوعية البيئة، في حين ينظر البعض إلى البيئة من حيث تأثيرها في حياة ونمو الكائنات الحية. وهناك مَن يهتم بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية للبيئة، من حيث كون البيئة مصدرًا لعناصر الإنتاج ووسيلة لتلبية وإشباع الرغبات البشرية.

ويتمتع الإسلام بنظرةٍ أعمق وأوسع للبيئة، حيث طالب الإنسان أن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود. قال تعالى: {**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين**} [الأعراف/85].

ولم تقتصر نظرة الإسلام للبيئة على البُعد المكاني لها، بل شملت أيضًا البعد الزماني: {**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**} [العنكبوت/20].

وقد طالب الإسلام المسلم أن يستثمر عمره – باعتباره بُعدًا زمنيًا مهمًا – في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق أنها نعمة كبرى للإنسان، ودعاه إلى النظر في مُكوِّنات البيئة والتأمل في مخلوقات الله وجعل ذلك دليلًا على الإيمان:

{**قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون**} [يونس /101].

ويحفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تؤكِّد أن الله هو وحده خالق البيئة ومُنظِّمها، وهو الذي وضع النواميس التي تكفل حفظ التوازن البيئي.

{**الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون**} [البقرة/22].

إن كل ما خلقه الله في البيئة قد خُلق بمقادير محددة، وصفات معينة، بحيث تكفل لها هذه المقادير وتلك الصفات القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الحية

الأخرى التي تشاركه الحياة على الأرض. وما أجمل القرآن الكريم حينما يلخِّص حكمة الاتزان في البيئة بقوله تعالى: {**إنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقدَر**} [القمر/ 49].

{**قد جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ قدرًا**} [الطلاق/ 3]، {**وخلقَ كُلَّ شيءٍ فقدَّره تقديرًا**} [الفرقان/ 2].

فكل شيء خُلق بمقدار بحسب علمه – سبحانه وتعالى –. وهو وحده الذي يعلم أن هذا القدر هو الذي يكفل لأي مُكوِّن أو عنصر من عناصر البيئة أن يؤدي دوره المحدد والمرسوم له في صنع الحياة في توافقية انسجامية غاية في الدقة. ويخضع كل ما في الكون لدورة حيوية رسمها الخالق العظيم تتسم بالدقة والاتزان، وتجري الحياة في هذا الكون بصفة مستمرة خلال سلسلة من عمليات التولُّد والمَوْت والتحوُّل. فالحيوانات حين تموت، تتحلل أجسادها إلى التراب. وتقوم النباتات باستخلاص المواد الغذائية من التراب لتحولها إلى أوراق وثمار وبذور يعتمد عليها الإنسان والطير والحيوان في غذائه، وتستمر عملية الموت والتحول والحياة وفقًا لما قدره الخالق – عز وجلَّ –.

وليس أدلّ على دقة الخلق، والتقدير المُحْكم لكل مكون من مكونات البيئة التي نعيش فيها، من أنه إذا ما حدث تغير واضح في أي عنصر من عناصر البيئة، سواء في خصائصه الكمية أو النوعية، فإن هذا الأمر يخلق لنا الكثير من المشكلات. فثاني أكسيد الكربون، على سبيل المثال، لو كانت نسبته أقل كثيرًا عن النسبة المُقدَّرة من قبل الخالق لانخفضت درجة الحرارة جدًا بحيث تنعدم الحياة على الأرض، ولو زادت نسبته لارتفعت درجة حرارة الغلاف الجوي إلى الحد الذي قد يؤدى إلى انعدام الحياة أيضًا.

الإسلام يحارب تلوث البيئة ويدعو إلى نظافتها

إن صحة البيئة فرع خاص من علم الصحة العامة تهتم به الأمم المتحدة والجماعات التي تبغي لأبناء وطنها صحة وعافية، وإذا كنَّا نلحظ في هذه الأيام قيام مؤتمرات وعقد ندوات للتحدُّث عن صحة البيئة ونظافة المنطقة ليحيا الإنسان في صحة وعافية، فإن الإسلام قد سبق الأمم والشعوب التي تدعو إلى ذلك لأن البيت والسكن والشارع والحارة؛ كل هذه الأشياء رعاها المُشرِّع الحكيم عندما وضع لنا القواعد العامة للمعيشة الكريمة.

والمتأمل في تعاليم الإسلام يلحظ حرصه على حُسن مظهر المسلم حتى لا يُصاب بالمرض

ويتمتع بصحة طيبة ويستطيع ممارسة العبادات التي كلَّفه الله بها؛ لأنها تحتاج إلى قيام وقعود كما في الصلاة وتطلب عافية في البدن ليتمكن الإنسان من السعي في الأرض ليكسب قوته وقوت أولاده ويصون وجهه من ذل السؤال، ويتمكن من إخراج الزكاة، فاليد العليا خير من اليد السفلى، كما يتمكن من السعي الذي يحتاج مكابدة ومشقة، ولا يقدر عليها إلا السليم الصحيح، وبالصحة التي اكتسبها المسلم من نظافة نفسه وجسده وبيته يستطيع أن يرحل من بيته إلى بيت الله لأداء الحج ويطوف ويسعى ويردد ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم "**رحم الله امرءًا من أرى القوم من نفسه قوة فالصحة تاج على رؤوس الأصحَّاء لا يعرف قدرها إلا المرضى**" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن الصحة عند المؤمن وسيلة لتحقيق غاية هي النهوض بالرسالة التعبُّدية والاجتماعية التي كلفنا بها الحق – سبحانه وتعالى –، ولقد أمر الإسلام بنظافة البيئة المحيطة بالإنسان من حجرة النوم إلى أفنية البيوت إلى الشارع، وجعل النظافة من سمات المسلمين، فقد جاء في مسند البزار عن النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جوَّاد يحب الجود فنظفوا فناءكم وساحتكم ولا تتشبَّهوا باليهود يجمعون الأكباء في دورهم**"، والأكباء أي "القمامة"، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن الأماكن الطيبة النظيفة هي التي تنزل فيها الملائكة لأنها تحب المكان النظيف الذي يفوح منه الرائحة الطيبة ولأنها تنفر من الروائح الخبيثة، أما الشياطين فإنها تنفر من الأماكن النظيفة ذات الرائحة الطيبة وأحب شيء إليها الأماكن الكريهة! وفى سبيل نظافة البيئة وإظهار مجتمع المسلمين بالصورة الطيبة النظيفة الراقية، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبوُّل أو التبرُّز في الطريق العام؛ لأن مَن يتبوَّل أو يتبرَّز في الطريق يخدش حياء من يراه وتلك صورة تنمُّ عن الانحطاط الفكري والتخلف الحضاري، ولا يفعل ذلك إلا من فقدَ أهليته ونزل عن درجات الإنسانية، والناس يلعنونه لأنه آذاهم بفعله الكريه، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وأبو داود: ["اتقوا اللاعنين". قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: "الذي يتخلَّى في طريق الناس أو ظِلِّهم" (صحيح مسلم بشرح النووي،ج3، ص 161،ط، حجازي). وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم إماطة الأذى عن الطريق صدقة] صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صحة المجتمع: المجتمع هو قطعة من الأرض يعيش عليها جماعة من الناس، هذه الجماعة تتعايش على المصادر الطبيعية التي تمدُّها بأسباب الحياة وهي الهواء والماء ومصدر الغذاء،

وهذه الأشياء لا بُدَّ أن تكون نظيفة لتحفظ على الشخص سلامة بدنه وعقله وتؤهله لأن يكون سليمًا حتى يستطيع أن ينتج ويُعمِّر، وبهذا نستطيع أن نصل إلى مستوى راقٍ بصحة المجتمع بالاعتماد على طبيعة التفاعلات بين المصادر الطبيعية وتصرفات أفراد هذا المجتمع وسياسته؛ لذا يجب أن تكون صحة الإنسان وصالحه هما محور نشاط كل الأعمال الإنسانية المتعلقة بهذا المجتمع. لذلك فإن التلوث بأي شكل من أشكاله سواء أكان في الهواء أم الماء أم الأراضي عن طريق المبيدات أو غيرها يؤثر على صحة الإنسان سواء أكان ذلك على المدى القصير أم الطويل، وغالبية مشاكل التلوث التي يحاول الإنسان إيجاد حلول لها هي من صنع يده، وبذلك يجب اتخاذ القرارات السليمة وبسرعة في كل ما يتعلق بالمجتمع؛ خاصةً في:

(1) **الماء:** ثروة غالية نفيسة، وأصل الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية وسبب حفظ الحياة، فهو ضرورة لحياتنا جميعًا، وهو من أهم مكونات البيئة، هيَّأه الله تعالى لكل المخلوقات في الأنهار والبحار والأمطار، يقول الله تعالى: {**وجعلنا من الماء كل شيء حي**} [الأنبياء:30]، ويقول جلَّ شأنه: {**وأسقيناكم ماء فراتًا**} [المرسلات: 27].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**لا تشربوا نَفسًا واحدًا كشرب البعير ولكن اشربوا مثنى وثلاثًا**" (جامع الترمذي، ج3، ص202، ط المدني (1384هـ –1964). ومفهوم ذلك أن الماء سبب للحياة سواء للإنسان أو الحيوان أو النبات فلا حياة من دون ماء، وهو ركن من أركانها لازم للصحة وضروري لتمام العافية واستعماله شرط أساسي في دوامها.

ومن هدى الإسلام الشرب قاعدًا، وفى ذلك من الفوائد الصحية ما يؤيده الطب. فإن الشرب على دفعاتٍ، وفى وضع الجلوس حيث تكون فيه المعدة مضغوطة بعضلات البطن مما يساعد الإنسان على التوقِّي من الوقوع في شر بلع الهواء المؤدي إلى ارتفاع الحجاب الحاجز وضغطه على أعضاء الصدر وأحشاء البطن المختلفة وتوليد اضطرابات متنوعة داخل جسم الإنسان. وأيضًا نهى الإسلام عن التبرُّز أو التبوُّل في المياه سواء أكانت راقدة أم جارية؛ لأن ذلك يؤدي إلى نقل العدوى خاصة البلهارسيا والإنكلستوما وخطورة هذين المرضين على الإنسان كبيرة جدًا وما شاكَل ذلك من أمراض تهدُّ كيان الإنسان وتُضعفه، وإذا كان النهي من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الإنسان في سائر شئونه وكذلك النهي عن فعل هذه الأشياء في طريق الناس، وقد ثبت طبيًا أن هذا الصنيع من قذارته وتقزز النفوس يسبب أمراضًا وبائية متوطنة، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [**اتقوا الملاعِنَ**

الثلاثة: "**البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل**"] (سنن أبو داود، ج1، ص6، ط مصطفى الحلبي). ويشمل ذلك البُصاق والتمخُّط في الطريق فإن ذلك يسبب أمراضًا ويؤذي النفوس أيضًا وينشر الأمراض الخطيرة، ويكون ذلك سببًا في انتشار العدوى في جمهور كبير من الناس.

وإذا كان العلم الآن قد تقدَّم وكشفَ عن الأخطار التي تُحِيط بالصحة العامة من خلال هذه الأشياء، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرَنَا بذلك منذ أكثر من ألفٍ وأربعمائة سنة؛ مما يكشف لنا عن أن الإسلام جاء لإسعاد البشرية، وهو الدين الصالح للبشرية جمعاء لذلك يجب توعية الأطفال الحفاظ على الماء وعدم الإسراف فيه، وإبعاد كل ما من شأنه أن يضرَّ بصحتهم، وبصحة الإنسان خاصة المبيدات الحشرية.

لذلك فإن تلوث الماء يُعد من أسوأ أنواع التلوث البيئي، حيث تُعدُّ المياه من أهم المصادر الطبيعية التي يجب حمايتها والمحافظة عليها، والاحتياجات المائية تُعدُّ العمود الفقري لمشروعات التنمية، حتى أصبحت حضارة الإنسان وتطوره تُقاس بمقدار مساهمة المياه في حياته اليومية.

(2) **الهواء:** مصدر لحياة الإنسان لأنه بالتنفُّس وتبادل الغازات الموجودة في الغلاف المحيط بالإنسان يتم تبريد حرارة الجسم عندما يتعرض الجلد للهواء الخارجي؛ فيشعر الإنسان بالراحة ويستطيع القدرة على العمل ويستمع بالحياة لأنه يتنفس قرابة نصف لتر هواء كل شهيق (قرابة ألف جالون يوميًا)، ومن هنا تتضح أهمية الهواء بالنسبة إلى الإنسان وكل الكائنات الحية الأخرى، والغلاف الجوى يتكون من 20,93٪ أكسچين، 0,4٪ ثاني أكسيد الكربون، 97,04٪ أزوت وكميات ضئيلة من غازات أخرى مثل الإيدروچين والنشادر والنيون والأرجون.

وهذا الهواء الذي خلقه الله – تبارك وتعالى – على تلك الصفة وبهذه النسب التي حددها العلماء إنما هي صالحة للإنسان والكائنات الأخرى كافة. لقد خلقها الله طاهرةً نقيةً لا تلوث فيها أو أشياء تضر بجسم الإنسان، وبدبيب الإنسان على الأرض ومحاولته اختراع أشياء تخدمه وتسهل له حياته بدأ هناك نوع من التلوث للهواء، هذا التلوث هو عبارة عن وجود مواد في الجو بكميات تؤثر على صحة الإنسان وراحته.

إن دخان المصانع والعوادم الغازية من السيارات وغيرها من وسائل النقل تسبب تلوث الهواء؛ وخاصة في مناطق التكدُّس العمراني والكثافة السكانية العالية في ظل ظروف معيشية غالبًا ما لا تكون مواتية. ولهذا العامل خطره على أطفالنا، وعلى الصحة العامة؛ وبالتالي على الاقتصاد الوطني. ولا يخفَى علينا أبدًا الضرر الذي يمكن أن يصل بالإنسان إلى الموت، فمثلًا

هناك ثلاثة ملايين حالة وفاة سنويًا جرَّاء تلوث الهواء؛ إذْ إن تلوث الهواء يُعرض البشر لأمراض صحية مزمنة، ويجعل الإنسان عرضة للإصابة بالڤيروسات التي لها تأثير على الجهاز التنفسي مثل الكورونا، وقد أشارت دراسات عدة إلى أن هناك أدلة قوية تؤكد أن التعرض الدائم لتلوث الهواء يزيد من خطر الإصابة بمرض كوڤيد –19 وعدد الوفيات.

وإذا كان لكل عصر مشكلاته ولكل مكان على الأرض كذلك مشكلاته الصحية، فعلينا أن نلحظ أن مشكلات العصر الحديث اختلفت أنواعها وتعددت عناصرها، وأصبح لزامًا على ذوي العقول أن يتنبهوا إلى ما أصبح يهدد صحة كل كائن على وجه الأرض، وأن تكون هناك نظافة للبيئة المحلية التي يتفاعل معها الإنسان ويحاول الفرد دائمًا أن يكيِّف سلوكه وفقًا لما يراه ويحيط به.

(3) الضوضاء: لا جدال في أن الضوضاء أصبحت اليوم تشكل أخطارًا عديدة على البيئة وأثرها في إزعاج وإقلاق راحة الإنسان؛ وخاصةً أطفالنا الصغار حيث إن للضوضاء أثرًا سيئًا على حاسَّة السمع، والأوعية الدموية، بل آثارها مدمرة للإنسان حيث تتسبب في زيادة ضغط الدم والتنفس وسرعة ضربات القلب والتقليل من إفراز العصارة المَعِديَّة وإحداث الضعف الدائم أو المؤقت لحاسَّة السمع والطنين في الأذن، كما وجد أن الضوضاء تسبب حدوث قُرَح الإثني عشر. وقد أُجريت بعض التجارب على الحيوانات المختلفة فأثبتت النتائج أن للضوضاء آثارًا مدمرة على كل شيء، وعلى كل الكائنات الحية، وفى مقدمتها الإنسان الذي خلقه الله وكرَّمه ونعَّمه. إن الضوضاء تضر بصحة الإنسان وتؤثر عليه؛ الأمر الذي يدعونا إلى أن نفكر في إبعاد كل ما من شأنه إثارة الضوضاء عن أماكن التجمعات السكنية؛ كذلك الإشراف الصحي على العمال المعرضين للضوضاء، وعزل كل الأشياء المسببة للضوضاء قدر ما أمكن في أطراف المدن وخارج القرى، وإبعاد المصانع عن المدارس حمايةً لأطفالنا الصغار، ووضع أشياء مناسبة للأُذُن لمَن يعملون في أماكن ضوضائية. ونذكر في هذا الصدد قول الله تعالى: {**ونُفخ في الصور فصَعِق مَن في السموات ومَن في الأرض إلَّا من شاء الله**} [الزمر: 18]؛ مما يدل على أن الإنسان قد يموت بسكتة قلبية نتيجةَ صوتٍ عالٍ وصل إلى مسامعه دون أن ينتبه لمصدر الصوت.

ولقد نبَّه سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم: "**لا تروِّعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم**" (أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد 253/6، والبزار: 3816). وكُلُّ منَّا مطالب بأن يحب للناس ما يحب لنفسه؛ لأن الرسول

صلى الله عليه وسلم يقول هذا، ولا شك أنَّ الضوضاء تزعج الإنسان؛ وخاصة أطفالنا الصغار مما يؤثر عليهم صحيًا ونفسيًا؛ الأمر الذي يجعلنا نضع القواعد الصحيحة مراعاةً للناس ومصالحهم التي هي من هدى الإسلام وتوجيهاته.

(4) الأغذية المكشوفة: كارثة من الكوارث التي نصنعها بأيدينا في مصر، وهي من أكبر مصادر التلوث التي تعرض صحة الإنسان وخاصة الطفل لأضرار بالغة، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل مرحلة من مراحل إنتاج وعرض وتوزيع هذه الأغذية تتضمن أخطارًا خاصة بها، فمن يدري شيئًا عن سلامة المواد الخام التي دخلت في تكوينها، وما مُكسِّبات اللون والطعم والرائحة الصناعية التي أُضيفت إليها والتي ثبت أنها أحد عناصر تلوث الغذاء، وتسبب أمراضًا خطيرة بالكبد والكُلَى، كما أنها تسبب السرطان، بينما المكسبات الطبيعية لا ينتج عنها آثار ضارة.. ثم مَن يدري درجة نظافة وسلامة صحة الأشخاص الذين قاموا بتصنيعها، ومن يدري عن نظافة الآنية التي استُخدمت في إنتاجها. ونظرًا لقلة أو انعدام المراقبة الدائمة من قِبل الصحة على هذه الأغذية والمشروبات التي يتجول بها أولئك البائعون المتجولون دون اهتمام نظافة هذه الأغذية؛ وخاصة الأغذية (الفواكه الغَضَّة) والتي يُقبل الأهالي على شرائها. والخطأ الأكبر أن بعض الأفراد يقبل على تناول هذه الفواكه دون غسلها وخاصة أن هذه الفواكه رُشت من قبل بالمبيدات، وهذا يؤدي إلى تلوثها بهذه المبيدات. لذا يجب على مسئولي الصحة المراقبة الدائمة والمستمرة على هذه الأغذية والمشروبات؛ وخاصةً أن هذه الأغذية تُوجد بين السيارات التي ينبعث منها العادم وهو مصدر لثاني أكسيد الكربون الذي يزيد من تلوث البيئة؛ وبالتالي ينتشر هذا الغبار والعادم على هذه الأغذية، وعندما يتناولها الإنسان أو الطفل فإنه يُصاب بأمراض التلوث التي تؤثر على صحته؛ وبالتالي على أدائه في الإنتاج[14].

(5) صناديق القمامة والنفايات المكشوفة:

من اللافت للنظر أنَّا نجد صناديق القمامة الحديدية التي وضعتها إدارة النظافة في بعض الشوارع والأحياء السكنية، لتجميع القمامة والنُّفايات بها؛ تسهيلًا على رجال وعمال النظافة لحملها منها دفعة واحدة، وهذه الصناديق الحديدية تُعد مظهرًا حضاريًا في بلادنا، لكن أولئك الذين وضعوا هذه الصناديق لم يهتموا بأن يركبوا أو يضعوا لها الأبواب المُحْكمة التي تغلقها بإحكام لئلَّا تكون صناديق النظافة بؤرة قذارة تجذب الذباب والحشرات والبعوض التي تنقل

العديد من الأمراض والأوبئة؛ ولئلَّا نجعل هذه القمامة نهبًا للرياح تذروها في الشوارع مرة أخرى وكأننا لم نفعل شيئًا.. أو أن يصبح الصندوق مرتعًا خصبًا للحيوانات الضالَّة مثل الكلاب أو القطط التي يروق لها العبث بمثل هذه الأشياء بحثًا عن رزقها ودون قصد منها، أو تعمد فتعيد القاذورات إلى الشوارع مرةً أخرى، ناهيك عمَّا سوف تحمله هي نفسها من ملايين الميكروبات المتوافرة في هذه البؤر ولتنقلها إلى عالم الإنسان وخاصةً أطفالنا الصغار.

(6) تلوث الشوارع السكنية:

من مشاكل التلوث البيئي، تلوث الشوارع الكبيرة التي يسكن بها أعداد غفيرة من الناس، ويوجد بها الفنادق الكبرى وأعداد هائلة من السائحين والزوَّار، وهذه هي الأماكن التي يجب اختفاء التلوث منها؛ لأنها تمثل البلد بأكملها، ولا يرحم التلوث الطفل الرضيع الذي استكان على رجلَيْ أمه ليمارس الرضاعة فلم ترحمْه سيارات الشارع وسيارات رش المبيدات الحشرية، فأكثر كائنات تتأثر بالتلوث هم الأطفال؛ وذلك لضيق الرئتين فالهواء أحد العناصر الأساسية والضرورية لكل كائن حي، ففي كل يوم تستقبل رئة كل منَّا قرابة 15 كجم من الهواء الجوي، بينما الجسم لا يمتص سوى 2,5 كجم من الهواء، وهذا يساعد على التلوث، فعلينا مراعاة هذا بقدر الإمكان.

(7) الطب الوقائي: الإسلام سبق الأمم الراقية والمتحضرة في الطب الوقائي؛ لأن الوقاية خيرٌ من العلاج، وهو يحثُّ أتباعه لرفع مستواهم الصحي واتباع الإرشادات الخاصة بذلك وتنفيذ النصائح والعمل على نشر التوعية المكثفة في كل مكان، كما أنه يحثُّ على التخلص من القمامة وسرعة نقلها بعيدًا عن أماكن العمران وعدم تركها فترة طويلة؛ لأنها تكون مكانًا للعفن والروائح الكريهة التي تؤثر على الصحة وتنشر العدوى، ثم جاء النهي عن إبقاء الفضلات والقاذورات في الشوارع والطرقات. والله – سبحانه وتعالى – يحب التوابين ويحب المتطهرين، كما أن الإسلام يحرص على غرس الأشجار ورعايتها حتى تكبر لأنها تعطي منظرًا جميلًا، ومن طبيعة الشجر أنه يخدم البيئة الاجتماعية إما بالثمر أو الخشب، وفي الوقت نفسه تلطيف حرارة الجو فيحتمي به الإنسان من شدة الحر أو عند نزول المطر؛ ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فإن استطاع أن يغرسها فليفعل**" (جامع الأحاديث للسيوطي، ج2، ص178). كما أن للشجر خاصية امتصاص بعض الغازات الضارة في تنفُّسه كغاز ثاني أكسيد الكربون.

(8) الخضرة في خطر:

تُعد الأشجار أحد أهم عناصر البيئة الطبيعية، وهي تمثل أحد عناصر الموارد الطبيعية المتجددة التي تقوم بحفظ التوازن البيئي، ومن دون الأشجار فإن الحياة البشرية ستصبح غير قابلة للاستدامة، وخير دليل على ذلك ما نادت به بعض الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية بالحفاظ على الأشجار من أجل الأجيال القادمة، حيث تُسهم الأشجار بشكلٍ كبيرٍ في تحسين نوعية الهواء والتخفيف من آثار تغير المناخ؛ خاصةً في المدن التي ترتفع فيها مستويات التلوث، فزراعة الأشجار تزيد القدرة على عزل انبعاثات الكربون حيث تمتص قدرًا كبيرًا من ثاني أكسيد الكربون الذي ينتج من الأنشطة التنموية المختلفة، بالإضافة لامتصاص بعض المركبات السامَّة من الهواء، وإطلاق الأكسچين[15].

إن الحدائق القومية والنباتات البحرية والمُسطَّحات الخضراء عمومًا على مستوى العالم، أخذت تنكمش أمام زحف المصانع والطرق والمنشآت السكنية الضخمة التي تدهم مناطق الخضرة وتنقض التحالف الذي امتدَّ لملايين السنين والطبيعة. إن عجلة التطور الغاشمة تكاد تدور دورتها الكاملة لتدوس بلا رحمة فوق 20 ألفًا من أنواع النباتات التي أصبحت مهددة بالفَناء الكامل. وفي مواجهة هذا الخطر فإن آلاف العمال من المتخصصين في الزراعة والبيئة يتحركون على مستوى العالم دفاعًا عن الخضرة، ولكن المعادلة الصعبة تكمن في أن مدنية الآلة ترفض التعايش السلمي مع عذوبة البيئة الخضراء.

وحتى المواطنون البسطاء أصبحوا يستشعرون الخطر الداهم، وهذا المثال من الهند يوضح مدى إدراك الناس للمشكلة. لقد حاولت الحكومة الهندية في إقليم جبال "الهيمالايا" اقتلاع أشجار "البَلُّوط" الضخمة وغرس أشجار "الصَّنوْبَر" محلها. وتسببت المحاولة في انهيار التربة والتأثير على مكوناتها الطبيعية تأثيرًا ضارًا، فما كان من سكان الإقليم إلا أن هبوا للدفاع عن أشجار "البلوط" وتكونت جمعية نسائية خاصة لهذا الغرض كانت عضواتها يتصدين للعمال ويمنعنهم من استخدام معاولهم، وذلك بالتجمع حول الأشجار واحتضانها.

ولقد سمعنا أن كل شجرة في بعض البلاد الأوربية لها شهادة ميلاد وملف يتضمن كل المعلومات عنها وتتعرض الأشجار للفحص الدوري، وكلما ظهرت عليها أعراض أي مرض انتقل إليها خبراء أمراض النبات لتقديم العلاج اللازم لها، لكن مَنْ للبيئة في بلادنا لكي يحميها من أعداء الخضرة الذين عشقوا اللون الأصفر، وكلما رأوا عودًا أخضر سارعوا بانتزاعه من جذوره؟!..

وخلاصة القول أن الفناء التدريجي للخضرة له آثاره الضارة والبعيدة المدى على التكوين الطبيعي والحيوي والاقتصادي والجمالي للبيئة، فضلًا عن آثاره المدمرة على الصحة البدنية للإنسان.

(9) العدوان على المسطحات الخضراء:

رغم أن المعدلات العالمية تحدد نصيب الفرد من المُسطَّحات الخضراء بمساحة تتراوح بين 12 و16 مترًا مربعًا، فإنه من المُلاحَظ أن المسطحات في القاهرة – عاصمة مصر وأكبر مدن الشرق الأوسط وإفريقيا – كانت ضحية عدوان صارخ ابتلع معظم مساحاتها تدريجيًا لترتفع مكانها المنشآت الضخمة التي أخذت تشغل كل شبر من الأرض، وتلطم وجه مصر المشرق في وقاحة خرسانية خالية من أي مظهر من مظاهر الجمال، فضلًا عن افتقادها للسمات المعمارية الأصيلة.

والغريب في الأمر أن مصر البلد الزراعي العريق يبحث عن الخضرة فلا يجدها. لقد تعرضت ميادين القاهرة ومتنزهاتها العامة وضفاف النيل لما يمكن أن نسميه "مذبحة الأشجار" التي بدأت في الخمسينيات وحتى يومنا هذا. هذا فضلًا عن تعرض البيئة الباقية من الحدائق والأشجار للإتلاف من جانب بعض المواطنين نتيجة لعدم الوعي بقيمة المسطحات الخضراء؛ مما أدى بالتالي إلى انكماش المساحة المتاحة للفرد من تلك المسطحات بحيث أصبحت أقل بكثير من الحد المعقول قياسًا على أية معدلات دولية.

والدليل على ذلك أن متوسط نصيب الفرد من المسطحات الخضراء في لندن مثلًا يبلغ 16 مترًا، وفي نيويورك يصل إلى 18 مترًا، أما في القاهرة فلا يتعدى متوسط نصيب الفرد 75 سنتيمترًا!. ومما يضاعف من حدَّة المشكلة أنه ليست هناك ميزانية للحدائق(16).

توصيات

(1) ينبغي تنمية الوعي الصحي لدى المجتمع المصري بجماعاته وأفراده بوجوب استخدام وسائل العصر في مجالات حماية صحة الطفل ورعايته، بلوغًا إلى توفير حياة صحية أفضل لأطفالنا.

(2) ضرورة نشر الوعي البيئي والمجتمعي، وتغيير السلوكيات الخطأ، وذلك عن طرق وسائل الإعلام المختلفة ببيان أخطار هذا التلوث على الصحة البشرية وخاصة الأطفال، بحيث يدرك الشخص أن الفضاء الصوتي ليس ملكًا شخصيًا.

(3) إبعاد مدارس الأطفال والمستشفيات عن مصادر الضجيج وإحاطتها بسياجٍ من الأشجار والنباتات كفلاتر طبيعية لامتصاص التلوث.

(4) البث المنظم لمخاطر وأضرار البيئة في وسائل الإعلام المختلفة.

(5) التربية السوية لأبنائنا، سواء داخل المنازل، أو في مناهج الدراسة بمختلف مراحلها.

(6) إن الالتزام بالسلوكيات الرشيدة والتحلِّي بالأخلاق السامية والقيم والفضائل الإنسانية وإضفاء روح التعاون والتراحم، وتقديم المصالح العامة وحماية الوطن على المنافع الفردية الضيقة، يمثل أهم الوسائل لمكافحة الضوضاء والتلوث بالضجيج.

(7) يجب أن يكون التعليم البيئي وأهميته لأبنائنا عملية مستمرة، طوال الحياة، وفي المدرسة وخارجها.

(8) يجب أن تُدرَّس البيئة ككل، بما فيها من مُكوِّنات طبيعية، ومكونات من صنع الإنسان.

(9) يجب أن يكون التعليم البيئي مسئولية كل الجهات القائمة على أمور التعليم، رسمية وغير رسمية، وعلى كل المستويات.

(10) ضرورة العمل على تحقيق وسائل التعليم البيئي والاستفادة منها، مثل: إجراء الدراسات والبحوث البيئية، تكوين الجماعات البيئية ونوادي البيئة في المدارس والمعاهد، وتخصيص احتفالية للبيئة، مثل يوم البيئة العربي في الرابع عشر من أكتوبر، تنظيم ندوات ومسابقات ومنافسات حول الشئون البيئية، عمل زيارات للمتحف ومواقع الموارد الطبيعية والحدائق القومية، تجميل أماكن الدراسة والعمل، القراءة في علوم البيئة، وتطبيق ومراعاة بعض المبادئ البيئية في شئون الحياة اليومية، مثل: عدم نثر القمامة في الطرق، وعدم الإسراف في استخدام المياه، وترشيد استهلاك الطاقة ومنع التدخين في الأماكن العامة.

(11) ينبغي أن يتعاون أهل الصناعة والمجتمع والمسئولون عن السلامة وحماية البيئة من أجلِ جوٍّ أنظف في العالم كله. والمطلوب كذلك أن تعمل المصانع وفق أصول السلامة، ووفق مقاييس حماية البيئة لئلَّا تتكرر الكوارث الصناعية. وليدرك العاملون بالمصانع أن البيئة بيئتهم، وأن المواطنين والأطفال هم أبناؤهم وإخوانهم.

(12) يجب ترسيخ ثقافة عميقة لدى شرائح المجتمع بالدور الحيوي الذي تؤديه الأشجار وأهميتها في تلطيف المناخ، وتقليل التلوُّث، وتنقية الهواء، وكبح جماح العواصف الترابية المتكررة، وفي تقليل الضوضاء.

الهوامش والمراجع:

(1) حسن زكري حسن، الإسلام والطفولة، مجلة منبر الإسلام، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمادى الآخرة 1399هـ/ مايو 1979م، العدد 6، السنة 37، القاهرة، (ص112).

(2) عبد العزيز مخيمر (أ. د.)، الحماية القانونية للبيئة في مصر، مجلة العلم، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوچيا، العدد 428، يونيه 2012م، القاهرة.

(3) هناء مصطفى (د)، الصحة والبيئة، مجلة العلم، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوچيا، العدد 428، يونيه 2012م، القاهرة.

(4) إبراهيم خورشيد، مفهوم الثقافة، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية، العدد (20)، صفر 1399 هـ/ يناير 1979م، الرياض، السعودية.

(5) محمد السيد حلاوة (د)، أدب الأطفال، مؤسسة حورس الدولية، ط 2000، الإسكندرية.

(6) الرازي، أبو بكر بن زكريا (بدون تاريخ): مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر بيك، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان.

(7) المقري، أحمد بن محمد (بدون تاريخ): كتاب المصباح المنير، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة.

(8) محمد جبريل، ثقافتنا، مجلة الحرس الوطني، رئاسة الحرس الوطني السعودي، العدد 238، السنة الثالثة والعشرون، صفر 1423هـ/ أبريل 2002م، المملكة العربية السعودية.

(9) هادي نعمان الهيتي (د)، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة (123)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، رجب 1408هـ/ مارس (آذار) 1988م.

(10) أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة، الدار العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1991 م، القاهرة.

(11) أحمد أبو زيد (د.)، فن التعامل مع البيئة، مجلة العربي، وزارة الإعلام الكويتية، العدد545، صفر 1425/ أبريل 2004 م، الكويت.

(12) اعتمدنا في موضوع البيئة في الإسلام أساسًا على الأسس العامة لتشريع الأحكام الخاصة بإصدار مشروع إسلامي لحماية البيئة في المملكة العربية السعودية، للأستاذ رمضان لاوند.

(13) محمد عبد القادر الفقي (م.)، البيئة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط 1993م.

(14) كمال الدين حسن البتانوني (أ. د.) ولجنة المسابقات العلمية، كتابات علمية، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوچيا، مطابع روزاليوسف، القاهرة، 1992م.

(15) أحمد عباس (م.)، التشجير وأهميته في الحفاظ على البيئة، مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد (4) ربيع الآخر 1444م/ نوفمبر 2022م، القاهرة.

(16) عادل طاهر، السياحة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، مطابع مؤسسة روزاليوسف، (بدون تاريخ)، القاهرة.